تحديات الدين الإسلامي في عصرنا: العلمانية، الحداثة والإلحاد

د/ نعيمة إدريس

المدرسة العليا للأساتذة/ قسنطينة

مقدمة:

يطرح عصرنا تحديات ربما تكون أكبر بالنسبة لجميع المؤمنين، ويقف على رأس هذه التحديات موضوع الإيمان، الإيمان بالله الخالق وعلاقاته بالمخلوقات، فهذا الإيمان يكاد يغيب، وإن لم يغب عند البعض فهو موجود بصورة متدهورة في قلب وذهن الكثير من المؤمنين وهذا أكبر تحدي يجب أن يخوضه المسلمون ضد كل التيارات المشككة والمادية والإلحادية أين كان مصدرها. إن طغيان الدنيوية والمادية أمر لا يحتاج إلى تدليل والأسباب في ذلك متنوعة، ورجال الدين وعلماؤه يجب أن يتحملوا مسؤوليتهم لمحاربة تردّي القيم الروحية والإنسانية وسقوطها في المادية والإسفاف لدرجة تطليق الدين كلية. لهذا يتوجب على كل من يُدخل نفسه ضمن الإيمان وخاصة المسلم منه، أن يتحمل مسؤوليته في النهوض بالدين ليسترد مكانته، بل ودوره في تنمية العقل والروح الإنسانية.

لقد رمى الكثير من المفكرين بالدين في سلة مهملات التاريخ والماضي مع الخرافة والأساطير، وهذا يضاعف من مسؤولية المؤمنين بالله لتوضيح التساؤلات الكبرى على كل المستويات سواء العقدية أو الكلامية أو الأخلاقية أو السياسية والتي تطرح حاليا على عقل

وضمير المؤمن أو الذي يجد حيرة تجاه إيمانه أو المشكك على حد سواء وهذه مهمة المختصين الدينيين والباحثين الجامعيين.

هذا يدفعنا للحديث عن إنسان اليوم وليس الملحد بالضرورة ولكن حتى الإنسان المؤمن، إيمانه أصبح يشكل موضوعا لضغوطات متعددة من قبل مختلف القوى المختلفة للعلمانية والحداثة، أما غير المتدين أو الذي يعطي للدين بُعدا ثانويا فقد أفرغ الدين من جوهره، واقتصر على بعض الطقوس التي يؤديها عند عقد القِران أو مراسيم الدفن. هذا الإنسان ارتكب مظالم كثيرة من شر وظلم وعدوان بل وأكثر من ذلك رفضه لحقيقة الإيمان بالله." إن القرآن انطلاقا من منظوره الواقعي لحركة التاريخ البشري يبين في أكثر من موضع أن (الأكثريات) البشرية تقف دائما بمواجهة الحق الذي لا تنتمي إليه إلا القلة الطليعية الرائدة، نظرا لما يتطلبه هذا الانتماء من جهد وتضحية وعطاء لا يحتملها الكثيرون[1]. هذا ما توضحه الآية الكريمة: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾[2] وهذه هي الحقيقة التي نعيشها وإن كانت حقيقة مؤسفة.

لكن أمام وضعية كهذه، وكمؤمنين مسلمين، هل نستسلم لليأس ونترك الأمور على حالها وينزوي المؤمن منا بنفسه بعيدا عن الضغوطات التي تحيط به ليعيش بذلك تجربة صوفية فردانية ويكون في هذه الحالة مستسلما يائسا؟ أم على المؤمن المسلم أن يكون فعالا بانخراطه في الحياة العملية وتحديه لكل الصعوبات، متمسكا بإيمانه واضعا عقيدته الصحيحة هدفا لا يحيد عنه؟

1- عماد الدين خليل: الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، بإسلامية المعرفة، السنة2، العدد 5، يوليو 1996، ص61.
2- المؤمنون:70.

إن الحل العملي والأكثر صوابا، يجعلنا نقول أنه مهما كانت الوضعية مزرية وحتى يائسة لإنسان اليوم المشتت بين إيديولوجيات ومذاهب يغلب عليها الإلحاد والمادية فهذا ليس مبررا لترك الوضع على ما هو عليه، بل الضمير المؤمن والمسلم خاصة يجب أن يستيقظ ويأخذ مسؤوليته ،المسلم مطالب اليوم بالكشف للعالم أجمع عن حقيقة الإنسان وقيمته وعن استخلافه في الأرض وعبوديته لله.

إن العظمة الحقيقية للإنسان تكمن في الإيمان بالله هذا يعني أن مهمة المسلم والمضطلع بأعباء الدين والعقيدة جد كبيرة، فهو يحتاج إلى الكثير من الجهد والصبر، وقبل ذلك الإخلاص التام للعقيدة والإيمان، الذي يجب أن يكون له صدى في سلوك المؤمن حتى يجد المصداقية والقبول والتأثير في غير المؤمن. إن وسائل الخطابة والكلمات الرنانة والترهيب من عذاب الله أو الترغيب في نعيمه لم تعد ناجعة، ولا تجد الآذان الصاغية خاصة عند الفئات المثقفة والمشبعة بعلوم الدنيا المعاصرة.

وفي هذا السياق فإن عقد ملتقى دولي ينصب حول إسهام الفكر العقدي وتحديدا الجزائري سيكشف عن الكثير من التساؤلات ويطرح الحلول أيضا، وإننا في هذه المداخلة المتواضعة ارتأينا العمل على المحور الأول "التحديات العقدية" بالكشف عن بعض تحديات الدين الإسلامي كخطوة ضرورية لمعرفة مواطن الداء، بالتركيز على مفهومي العلمانية والحداثة باعتبارهما بوابة الإلحاد. اعتمدت في ذلك منهج الاستقراء التاريخي بتتبع أصل ومنبت هذه المفاهيم الخطيرة والهدامة، ثم كيف تسربت إلى عالمنا الإسلامي ،إلى جانب المنهج التحليلي المقارن للوقوف بعمق على المضامين الفكرية وكيف كان تفاعل المسلمين معها، لنكشف أنها وجدت صدى وترحابا من قبل البعض، مدعمة هذا التحليل بآراء بعض المفكرين أمثال أركون والشرفي ومحمد عمارة... باعتبارهم عالجوا هذه المفاهيم وأبدوا

موقفا منها. إن تحليل هذه المفاهيم البعيدة في أصلها عن الإسلام والوقوف على الجدل الذي أثارته بين مفكري الإسلام من مؤيد ومعارض لها، يبرز أهمية الموضوع وحساسيته بالنظر إلى أن أغلب حكومات الدول الإسلامية تبنت العلمانية نظاما تعليميا واقتصاديا وسياسيا بداهة رغم رفض فئات عريضة ونخب فكرية لها.

وتجدر الإشارة إن هذه التحديات تخص العالم الإسلامي دون استثناء، لكن ما تعرضت له الجزائر في تاريخها المعاصر من احتلال أجنبي طال أمده، قبل أن تتمكن من الحرية، جعل التحدي أكبر لديها، ثم إن الجزائر وبالنظر إلى مزاياها مازالت عرضة للهجوم خاصة عن طريق تصدير المفاهيم الهدامة باعتبارها صارت سلاحا أمضى وأقوى في المعركة بين الإيمان والكفر.

بعد هذا التقديم نسأل المولى عز وجل التوفيق والسداد للملتقى ولكل المشاركين فيه.

أ/ الغرب المسيحي والتحديات الدينية:

بالرجوع إلى الخلفية التاريخية المشكّلة للفكر الغربي، فإننا نجدها ذات قاعدة مادية في أصلها، لأننا إذا اعتبرنا التراث اليوناني مصدر إلهام الحضارة الغربية الحديثة، فمعروف أن هذا المصدر الملهم يكتسي الطابع المادي في عمومه إذ يمكن القول أن الفكر الغربي وصدورا عن مرجعيته اليونانية وتأسيسا عليها، فكر مادي في أغلب اجتهاداته ومذاهبه، إذ المعروف عن الفلاسفة اليونان الأوائل خاصة فلاسفة المدرسة الأيونية وأنصار مذهب الذرة منهم، أنهم لم يعترفوا بالخلق من العدم. وقد بلغ هذا التفسير المادي للوجود غايته وصورته الغالية عند أتباع المدرسة الذرية ديمقريطس وأبيقور ولوقريطس الذين قرّروا المبادئ الهامة التي غدت من بعدهم القواعد المؤسسة لكل مذهب مادي في الفكر الإنساني عامة. وغني عن

البيان أن مقتضى هذا التصور المادي إنكار ما ليس بمادي، مما جعله منبعا ومصدرا للإلحاد بكل دلالاته[1].

وقد تم تغلغل هذا التيار المادي في الذهنية الغربية قبل ظهور المسيحية، لكن حتى بعد مجيئها واعتناقها من قبل الآلاف، إلا أنها لم تتمكن من اقتلاع جذور هذه النظرة المادية رغم ما دعت له من روحانية وتعالي، هذا يؤكده الاستقراء التاريخي الحديث والمعاصر الذي نجده مجرد امتداد لتراث الماضي في بعده اليوناني. الإنتاج الفكري المرتبط بعصر النهضة وفلسفة التنوير وما بعدها، كله يكرس المادية وإسقاط الماورائيات بكل صورها.

هذا ما وضحه بوترو في كتابه عن علاقة العلم بالدين، حيث بين أن وضع الدين بدأ يهتز ويغوص في الصوفية الفردانية بداية من عصر النهضة قائلا: "وبالانحلال الداخلي للاتجاه المدرسي، كما للظروف الخارجية نتجت الحركة الثانية التي تميز النهضة، من جهة فالمسيحية المتصوفة التي وضعت جوهر الدين في الحياة الباطنية من خلال العلاقة المباشرة للروح مع الله في التجربة الشخصية للخلاص والتطهير، انفصلت وتجرّدت عن الكنيسة التقليدية. هذه الظروف قدمت ما يسمى بالإصلاح والتجديد، والتي بدونها كان لا يمكن أن تبقى ربما هذه الجاذبية الروحية مماثلة للتي ظهرت في العصر الوسيط"[2]، وإن كانت جاذبية محدودة النطاق.

1- عرفان عبد الحميد فتاح: إسلامية المعرفة ومنهجية التثاقف الحضاري مع الغرب، بمجلة إسلامية المعرفة، السنة 2، العدد 5، يوليو 1996، ص ص 26-27-28.

2 -Emile Boutroux: Science et religion dans le philosophie contemporaine. Paris Ernest Flammarion éditeur, p 13.

هذا الإصلاح الديني وهذه الظروف كان لها أثرها على الإنتاج الفلسفي أيضا كما يوضح "بوترو" من جهة أخرى قطعت الفلسفة الصلة التي ربطت بينها وبين اللاهوت في المرحلة المدرسية، معتمدة تارة على أفلاطون وأخرى على أرسطو الحقيقي، وتارة على الرواقية والأبيقورية أو أي مذهب قديم. لقد تحررت وبطاقة معتدلة من عبودية اللاهوت وسلطة أرسطو العصور الوسطى مغيرة المشرف عليها متوجهة نحو الاستقلال"[1]. هكذا بدأت تظهر المذاهب الفلسفية الجديدة المبتعدة عن الميتافيزيقا واللاهوت... وأخذ هذا الاتجاه ينمو ويتأصل حتى ظهور الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة والتي تبدأ من أواخر القرن التاسع عشر" فقد غلب على مدارسها ومذاهبها الإلحاد الصريح، نتيجة الغرور بتقدم العلوم المادية والصناعات في أوربا أو التشاؤم الذي ساد بعض المجتمعات الأوربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية"[2].

هذه الأخيرة كانت سببا في ظهور فلسفات الإلحاد أو الإحباط بكل أنواعه وعلى رأسها الوجودية الملحدة، لأنه "عندما اصطدم الفكر الديني بالحرب العالمية الأولى، دعا إلى الانسحاب من المعمعة والانعزال عن العالم ورأى الخلاص في القفزة العمياء إلى المسيح والسكون إليه وفيه وجوديا، وذلك حسبما رآه المفكر الديني الأول كير كجارد ولكنه عند صدمته بالحرب العالمية الثانية اضطر إلى التدخل وقال "لا" في وجه الفاشستية"[3].

1 – *Ibid, p 13.*

2– أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة في الجامعة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، U.S.A، 1981، حزمة رقم 05، ص 72.

3– إسماعيل راجي الفاروقي: التحرك الفلسفي الإسلامي الحديث، المعهد العالمي للفكر الإسلامي**U.S.A** ، حزمة رقم 05، 1981، ص 15.

لكن "لا" هاته لم تشفع أمام الرّدة الدينية التي اجتاحت الغرب فيما بعد، بل أصبح كل ما له علاقة بالمسيحية موضع اتهام وشك على أساس أنها هي المسؤولة عمّا حدث من جرائم، واتهام المسيحية يعني اتهام الله مباشرة، فقد ادعى مفكرو الغرب "إن إلههم الذي سمح بتعذيب اليهود وقتل الملايين من الناس الأبرياء وتدمير مدن برمتها **إله ميت،** وأن الدين لابد له من التخلص من كل عنصر ما ورائي مطلق إذ يكمن الشر والاستبداد في الماورائية والإطلاق بالذات، وأخذ المفكرون ينشرون الكتب بالعشرات... مؤكدين أن كل ماورائي، فوق الطبيعة خرافة وأسطورة"[1] .

هكذا بدأت محاربة الدين ثم الأخلاق بالنظر إليها نظرة نسبية دون ربطها بأي بعد ديني، فكل القيم تخضع لمقياس الإنسان والإنسان فقط، وقد كرّس هذا الاتجاه تصاعد تيار الوضعية الذي تحدى كل تراث الفلسفة والميتافيزيقا كما أثر في مفاهيم ومناهج العلوم الإنسانية. هكذا يمكننا أن نستنتج "أن العقل الغربي عقل وضعي يستبعد العامل الديني والخلقي، وذلك استنادا إلى مرجعية علمانية وضعية ورياضية علمية، حيث أن الوعي الغربي لا يسلّم بغير سلطان العقل في مجال التوجيه العملي والتسديد الخلقي... وقد كان من المضاعفات الخطيرة لهذا التوجه أن استقل العقل بذاته ووفق آلياته الداخلية الخاصة بصورة مجرّدة عن كل غايات إنسانية"[(2)]، وبصيغة أخرى تكرست نزعة تقر ب"محورية الإنسان الفرد

1- المرجع نفسه، ص 15.

2- رفيق عبد السلام بوشلاكة: مآزق الحداثة والخطاب الفلسفي لما بعد الحداثة، بمجلة إسلامية المعرفة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، U.S.A، السنة 2، العدد 6، سبتمبر 1996، ص 128.

الصمد في الوجود وأن الإنسان إله ذاته مستقل بوجوده بنفسه، يُشرّع لنفسه ما شاء، كما أراد فلا سلطان عليه خارج ذاته"[1].

وعموما ما حدث في الغرب **هو إنكار للإله وإقصاء للوحي وتعاليمه وضرب للأخلاق وسموها**.

لكن ما زاد الطين بلة –كما يقال– أن الفكر الديني المسيحي لم يقف بقوة ضد موجة الإلحاد هذه، بل بعض ممثليه راحوا يكيفون عقائدهم لتنسجم مع مقولات الحداثة والوضعية والوجودية والعلمانية. "وكان رجل اللاهوت المسيحي وصل به التحول عن تراث المسيحية المعروفة لدرجة الإيمان بأن المسيحية هي ما توحي به إليه ميوله ورغباته. وبلغ أثر الانحلال الفكري درجة اضطرت الكنيسة الكاثوليكية –وهي أشد الفئات المسيحية تحفظا– إلى الرضوخ إليه في مؤتمر الفاتيكان الثاني وما تلاه من رسائل بابوية، وذلك بتمييع العقيدة وتبديل الفكر الكامن في مناسك الدين، إن لم تفلح بتبديل النظم"[2] هذا يعكس أزمة الدين المسيحي في عصرنا ويعكس مدى حجم التحديات الضخمة التي يواجهها، إذا اعتبر المسيحيون أنفسهم معنيين بما يحدث وأن لهم الضلع الأكبر في انهيار القيم الإيمانية في العالم بأسره.

ب– تحديات الدين الإسلامي في عصرنا:

إن ما ذكر باقتضاب عن الغرب المسيحي ومعاناته الدينية، انسحب وبفعل أسباب مختلفة، على المجتمعات الإسلامية وكما يقول الشرفي: "من السذاجة أن ندّعي أن المسيحية وحدها عرضة لمثل هذا التحول، فالقوى السوسيولوجية التي أحدثت هذا التغيير تعمل

1– عرفان عبد الحميد فتاح: إسلامية المعرفة منهجية التثاقف الحضاري مع الغرب، ص 30.

2– إسماعيل راجي الفاروقي: التحرك الفلسفي الإسلامي الحديث، ص 16.

عملها، وإن في بطء وبدرجات متفاوتة حسب الأصناف الاجتماعية في المجتمعات التي تدين بالإسلام"[1]، فقد أصبح الإسلام الذي كان رمز القداسة والتعالي، موضع شك وهجوم من طرف أبنائه، مثله مثل المسيحية، رغم أن المنطلقات العقدية والممارسات السلوكية للإسلام تختلف في جوهرها عن المسيحية، بل إن ما طُبق في أوربا "أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله" جرت وتجري محاولة تطبيقه على البلدان الإسلامية، وبالتحديد محاولة فصل الدين عن السياسة، عن الأخلاق، عن الاقتصاد... رغم أن الإسلام دين توحيد بعيد عن الثنائية ولا يفصل بين المجالات الإيمانية والحياتية، بل يجعلهما في سياق واحد.

فبعد أن مُسّت قداسة الإسلام من قبل المستشرقين والمبشرين الغربيين أصبحت الاتهامات –وإن تم الأمر بحذر في البداية– تأتي بأقلام أبنائه، وهكذا حدثت ردة (محدودة) وكان لزاما أن تطرح نفس الإشكالات التي طرحت على المسيحية، وأهمها ليس حكم المرتد كما حاول البعض طرحها فقهيا وإنما "لماذا يرتد المسلم؟ أو بعبارة أدق ما هي طبيعة إيماننا اليوم"[2] حيث راح البعض يغوص في الموروث المقدس علّه يعثر فيه عن إجابة باللجوء إلى تفسيرات وتأويلات وإسقاطات كل حسب وجهة نظره ومنطلقاته الفكرية.

ونميز فيما أفرزته تيارات التغيير بين ثلاثة مواقف:

– **المُقلّدون:** تشبعوا بالثقافة العربية ونظروا للإسلام من نفس نظرة الغربيين للمسيحية والنتيجة أو القناعة عندهم: الإسلام هو المسؤول عن التخلف...

1– عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع /العاشر،الدار التونسية للنشر ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1968، ص 527 (من الخاتمة).

2– احميدة النيفر: من الرّدة إلى الإيمان إلى وعي التناقض، إسلاميات–مسيحيات، العدد 13، روما، 1987، ص4.

– **الأصوليون**: تيار مضاد، اعتبر ما حدث مؤامرة جديدة ضد الإسلام تهدف إلى تحطيمه من الداخل باستخدام أبنائه وسائل في ذلك، ورأى الحل في التمسك برأي السلف الصالح كسبيل للنجاة، ويمكن أن نرى هذا التيار في الصحوة الإسلامية والحركات السياسية الإسلامية خاصة.

– **المصلحون**: تيار يعتنق الإسلام ويؤمن بقدراته، لكن يؤمن بضرورة إخضاعه للتطور والتحديث، لأنه فعلا يحمل المقومات التي تؤهله لمجابهة التحديات، وبالتالي إخضاع الموروث الإسلامي للدراسة وفق المناهج الحديثة وتنحية ما يعيقه، والإبقاء على ما ينفع فقط والعمل على جعل الإسلام يساير العصر دون أن يفقد مقوماته طبعا.

أي نجد من بين الآراء من "تُحتم تحديث التفكير الديني حتى يتلاءم مع العصر، وهو طريق محفوف بالمخاطر والمزالق، لكن لا تنفع فيه الخطابة الفارغة، ولا كمّ الأفواه ومنع مواجهة الآراء المختلفة بعضها بعضا"[1]، وعموما هذا الموقف دعا إلى إصلاح ديني على غرار ما حدث في أوربا من إصلاح ديني قاده لوثر وكالفن...

وبإمكاننا تخيل التركيبة الاجتماعية للمسلمين التي لم تعد منسجمة ومتفقة فيما يخص الإسلام، مع هبوب رياح النهضة والتغيير.

ج– ما قبل وما بعد النهضة العربية:

على غرار النهضة والإصلاح الأوربيين مرت المجتمعات الإسلامية بهذا الطور التاريخي بعد أن اطلعت على التغييرات التي حصلت في أوربا خاصة، ويمكن اعتبار أن أول منبه للمسلمين يتمثل في حملة نابليون (1769-1861) على مصر 1798، لقد كانت الفرصة الأولى التي اطلع فيها المسلمون على منشآت الحضارة الحديثة. "إن بونابرت لم

1 عبد المجيد الشرفي: المرجع السابق، ص 527.

يصحب معه المدفع وحده، بل أتى "بفكرية الحضارة الغربية" وبالمطبعة والصحيفة أيضا... ومنذ ذلك التاريخ بدأ "التغريب" كواحد من أخطر التحديات التي واجهت وتواجه الإسلام والمسلمين في العصر الحديث"[1].

لقد انبهر المسلمون بما حمله نابليون من صور براقة وغير براقة بما في ذلك علماء الدين على أعلى مستوى "إذ جوبه علماء الأزهر لأول مرة بالعلوم الطبيعية الحديثة وتطبيقاتها الحربية التي هزّت المسلمين وأنزلت بهم خسائر فادحة... لقد أعجب المسلمون بتطبيقات تلك العلوم دون أن يفهموا النظريات المعرفية والكونية المترتبة عنها، واندفعوا منذ ذلك يبتعثون أبناءهم لتعلمها في الغرب"[2] ويمكن أن تكون الأزمة بدأت من هذه البعثات أصلا.

إن أغلب من ابتعث إلى الغرب جاء محملا بأفكار الرّدة، رافضا الإسلام بنفس منطلق وحجج من رفضوا المسيحية وكأن الإسلام هو المسيحية نفسها، وكأن الإسلام سار في نفس السياق التاريخي من سلطة وتحكم الكنيسة ومحاكم التفتيش وقهر العلماء... "هذا من أشد غرائب المسلمين غرابة، ولا يفسر إلا بتنازل شخصي بحت، بل وعزل الإسلام إلى نطاق الضمير تماما كما عُزلت المسيحية في الغرب"[3]. هذه الثمار الأولى للبعثات نحو الخارج خاصة في العلوم الإنسانية، والتي قاد لواءها الدكتور طه حسين ورفاعه الطهطاوي... فأغلبهم عاد منبهرا بالحضارة الغربية، مزدريا للإسلام.

1- محمد عمارة: العلمانية ونهضتنا الحديثة، دار الشروق، ط2، 1986، ص 9.

2- إسماعيل راجي الفاروقي: التحرك الفلسفي الحديث، ص 16.

3- المرجع نفسه، ص 17.

"لقد دفع العالم الإسلامي بخيرة أبنائه الأذكياء إلى معابد العلوم الطبيعية في الغرب، عن جهل مطبق بأرباب المعبد العلمي وشياطينه، بل محرّضا إياهم على عدم الربط بين ما يتلقونه من تلقين علمي وبين دينهم، لذلك خسروا الاثنين معا: الدين والعلم"[1].

وكأحسن نموذج على التحول الذي عرفته الشعوب الإسلامية والذي هزها نفسيا ودينيا واجتماعيا، ما حدث في تركيا من قبل مصطفى كمال أتاتورك الذي اختار النموذج الغربي للدولة، وفرضه قوة على المواطنين المسلمين سواء في المؤسسات الرسمية للدولة أو حلى على مستوى أنماط السلوك الاجتماعي للأفراد، كفرضه لبس البدلة للرجال ونزع الحجاب للنساء... ومصطفى كمال من الشباب المسلمين الذين فازوا ببعثة للدراسة في الخارج، وكان انبهاره كبيرا بالحضارة الغربية، جعله يحقق ما حلم به لما أتيحت له الفرصة.

د- الإسلام وجدل العلمانية* والحداثة** والإلحاد:

1- المرجع نفسه، ص 17.

* العلمانية وتعني فصل الدين عن الدولة لا كما يظن البعض إنكار الدين، ولقد صار علما على العلمانية في الغرب*Secularism* بالإنجليزية و*Sécularité* بالفرنسية وكلاهما اشتقاق من لفظ*Secular*، والغرب يفهم اللفظ بمعنى فصل الدين عن الدولة، وعدم تدخل الكنيسة في أعمال الدولة.

** أما الحداثة فهي إنكار الدين وليس إبعاده حسب التوظيف الغربي للمصطلح.

فالعلمانية تقدم "السلبية" بالنسبة للدين، يستوي عندها أن يوجد أو لا يوجد، شريطة أنه إذا وجد، فلا عمل له في المجتمع ولا دخل له بالدولة. غير الإلحاد الذي يقدم "الإيجابية" ضد الدين وهو الفارق الذي يقوم في الإنجليزية بين لفظي*Non* و*Anti* فإذا كانت العلمانية "اللادينية"*Non religions* فإنها مرحلة سابقة على مرحلة أشد ارتكاسا وهي "ضد الدين"*Anti religions* ينظر بالتفصيل في كتاب علي جريشة: الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص 84-90 كذلك ينظر في مصطلح العلمانية ونشأتها... كتاب العلمانية ونهضتنا الحديثة لمحمد عمارة، ص ص 11-15.

إن التطورات التي عرفتها المجتمعات الإسلامية مع النهضة العربية ومع موجة الإحتلال الحديث ومع موجة التحرر التي أعقبتها، أثرت في الذهنيات والسلوكات على كل المستويات بما فيها الدين. "إن بعض المفاهيم التي كانت لا تثير في الضمير أي مشكل "مفهوم السماء" مثلا– قد ثورّتها المعرفة الحديثة من أساسها وإن المعلومات التي يتلقاها الطلبة في المعاهد والجامعات عن أصل الإنسان وعن تكوينه البيولوجي، وعن التفاعلات الكيميائية التي تتحكم في عمل المخ البشري وغيرها مما لا يُحصى من المعلومات التي ما كانت متوفرة لأسلافنا، لتفرض إعادة النظر في الكثير من المسلمات المصطبغة بالدين في ذهن عامة المؤمنين، وتحتم تحديث التفكير الديني حتى يتلاءم مع العصر"[1].

وإعادة النظر هذه في بعض المفاهيم أو المسلمات المصطبغة بالدين، أثارت حساسيات كثيرة بين التيارات الفكرية الإسلامية، حساسيات أوصلت إلى مواقف جدلية حادة داخل المجتمع الإسلامي، فالإسلام الذي يحمل دائما طابع القداسة أصبح محل شك خاصة بالنظر إلى بعض الآراء العلمية، وهنا مكمن الحرج خاصة بالنسبة للإسلام الذي لم يعرف طوال تاريخه صراعا بينه وبين العلم. لقد عرف تاريخ الفلسفة الإسلامية مواجهات مع بعض فقهاء وعلماء الدين، لكن تاريخ العلم الإسلامي لم يعرف ذلك، بل إن علماءه وجدوا الترحاب والتكريم من طرف حكام المسلمين. هذا الترحاب أو التوافق بين العلماء (العلم التجريبي) وعلماء الدين والشريعة ربما هو الذي أعطى إيحاءا للدكتور عبد المجيد الشرفي في مقاله: *La sécularisation dans les sociétés...* والذي قدم فيه طرحا

1– عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، ص 527.

مختلفا كما أشار هو بنفسه لذلك[1]، حيث حاول البحث في جذور العلمانية الممكنة داخل الإسلام نفسه خاصة بعد انتشارها في المجتمعات الإسلامية والعربية حاليا، لأنه كما يذكر "لكي تنمو البذرة وتعطي ثمارا يجب أن تجد تربة ملائمة ولكي يكون زرع الأعضاء ناجعا لابد أن تكون لها خصائص مشتركة مع الجسم المستقبل، فإذا لم تكن المجتمعات العربية الإسلامية مستعدة للعلمنة، فكل تأثيرات الغرب مجتمعة لن تنجح في تحويلها"[2]، حيث حاول أن **يبين أن بالإسلام توجد مقومات العلمانية.**

فالإسلام فصل في المقدّس والمتعالي بإجابة قطعية ومحددة، وبالتالي بقيت الدنيا هي المجال الذي ينشط فيه الإنسان أي العلم والعقلانية، مقدما استقراءا لعلوم المسلمين من علوم الشريعة، لعلم الكلام، ذاكرا الجاحظ، ابن مسكويه، التوحيدي، المعري... ليخرج بنتيجة قائلا: "كل فروع النشاط الثقافي للعرب المسلمين لم تكن تقريبا خاضعة للمعايير والقيم الدينية"[3] أما الشعراء في رأيه فقد صرّحوا بأمور ضد الدين مركزين على الجانب الجمالي، أما في المجال الطبي فقد كان الأطباء يقومون بتجارب على الحيوانات وعلى جثث الموتى ولم يُشكك ذرة في إيمانهم، كذلك يذكر ابن خلدون الذي طبق القوانين الاجتماعية الوضعية في دراسته ليخرج بهذه النتيجة: "هذه الأمثلة تبرهن وببساطة أن **الإسلام باعتباره دينا وممارسة دينية في نفس الوقت، يقبل بإثراء بعض الصور للعلمانية**"[4].

1-Abd Al-Majid Charfi: La sécularisation dans les sociétés Arabo-Musulmanes modernes Islamo-chritiana, tome 8, Rome, 1982.

« Cette recherche naguère été entreprise, dans cette perspective à: notre connaissance », p 59 :يذكر في مقاله

2 -Ibid, p 59.

3 -Ibid, p 59.

4 -Ibid, p 62.

وفي الحقيقة نجد ما يشبه هذا الطرح أو هذه الإمكانية عند المفكر الإسلامي محمد عمارة الذي حدد إيجابيات العلمانية التي تجد اتفاقا مع الإسلام كالنفعية والتجديد وعدم الاهتمام بالخوارق والتقليد*، لكن يستنتج من هذا الاتفاق عدم حاجة المسلمين للعلمانية لأنه حتى وإن وجدت علمانية في الإسلام فهي مختلفة قلبا وقالبا عن علمانية الغرب.

وما يجب التأكيد عليه أن العلم عند المسلمين في تلك الفترة لم ينف عالم الغيب ولم يكن يؤمن بالمادة فقط، كما ذهب إليه بعض أنصار العلم المعاصر الماديون أو الملحدون الغربيون الذين أنكروا الفلسفة والدين.

"إن الفصام المطلق الذي رامه غلاة الوضعية بين الدين والعلم قد حول العلم المجرد عن التقوى والإيمان والمسؤولية الأخلاقية إلى سلاح هدمي خطير صارت البشرية جمعاء تتجرع أوضاره وأضراره ومفاسده ونتائجه المخيفة لحدود قصوى"[1].

هكذا طرح مشكل العلمانية بكل أوجهها في الغرب المسيحي والذي عضّدته الحداثة برفضها للدين والقيم، هذا ما حدث في الغرب المسيحي لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل تعارض الدين المسيحي مع العلم يستلزم تعارض الإسلام كدين أيضا معه؟

وهل بالضرورة الإقصاء الذي حدث للمسيحية بفعل مسار تاريخي معيّن يجب أن يحدث مثله للإسلام؟ أو كما قال محمد عمارة متسائلا: "هل نحن محتاجون إلى هذه

* ينظر محمد عمارة: العلمانية ونهضتنا الحديثة، ص ص 15-17.

1- عرفان عبد الحميد فتاح: خصائص المنهج العلمي ومقاربته في القرآن الكريم، بمجلة التجديد، العدد 1، يناير 1997، تصدرها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ص 25.

"العلمانية"؟ وهل تمثل بالنسبة لنا ذلك "التقدم" الذي مثلته في بيئتها الأوربية؟ أم أنها بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، نبتُ غريب، وغير صالح، بل وضار؟!..."[1].

إن الإجابة على مثل هاته الأسئلة تبدو سهلة خاصة من طرف المسلمين المؤمنين الذين لديهم قناعة بأنه لا تعارض بين العلم والإسلام لأنه دين علم وعقلانية لكن الأمر أعقد من ذلك بكثير "فالعلم وهو ينفي يوما فيوما حدود الغيب في الكون يطرح علينا أسئلة يجب على الفلسفة والدين الإجابة عنها، أو ينكرا إنسانية الإنسان وجوهره، والعلم يفرض على كل الناس مزيدا من التفكير، وعلى المؤمنين قراءة جديدة للرسالة المنزّلة عليهم تربطها بالوقت الحاضر مشكلية من المشكليات الجديدة. أليس من الضروري أن نؤكد على أن الإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن أن تكون بالمطابقة البسيطة الغامضة بين العلم والدين كما كان الشأن عدة مرات في الإسلام منذ حركة النهضة"[2].

مطابقات عديدة وسريعة، أوقعت التفسير القرآني في إحراجات، فكل اكتشاف علمي جديد لا يجب أن يرّد وجوده أو أصله في القرآن، ردا سريعا ساذجا –كما يفعل بعض المسلمين– على سبيل الإعجاز العلمي القرآني– والذي لا ننكره –لكن كما ذكرنا هذا أوقع المسلمين والإسلام– في مآزق، على اعتبار العلم نسبي ونظرياته كثيرا ما تتغير وتتعدل لتجاوزها أو لخطأ ما فيها، وهذا الرّد السريع –الساذج– يعرّض القرآن لهذا التغيير والتعديل وهو محال.

فعلى المسلمين أن يجدوا الوضع الأنسب لدينهم موازاة مع النظريات العلمية المتحدية؛ أي "من الضروري إيجاد تفسير للنصوص الدينية لا ينكر حتما ثروات الماضي ومكتسباته

1- المرجع نفسه، ص 11.

2- محمد الطالبي: الإسلام والحوار، ص 22.

الإيجابية، ويكون في حاجة إلى المغامرة والتبادل وجو من التوتر حتى يحكون على علم بكل ما يجّد ويكون قادرا على الإجابة على التساؤلات التي قد تشغل بال الناس"[1].

هاته التساؤلات التي اقتنع الكثير من العلماء المنصفين عن عجزهم عن الإجابة عنها مكتفين بحصر العلم في مجالات محدودة.

وفي حالة التعارض أي "إذا رأى العالم في النصوص الدينية ما يخالف معطيات العلم فإنه يفضل الانتظار حتى تنكشف له معرفة جديدة، فلعلها تأتي متفقة مع فهم ما للدين، والعالم بحكم مهمته... مضطر إلى أن يثير مشكلة الإيمان بمعناه الواسع وبمعناه الخاص"[2] إذن من الممكن جدا أن نجد تعايشا بين الإسلام والعلم وفق نظرة جديدة متفتحة –كما هو الأمر في الماضي– تحاول تحصيل ما فات واللحاق بالركب الحضاري. وعموما العالِم الحق يقف من الدين والكتب المنزّلة موقفا علميا يتسم بالتأني في الحكم فهو ينظر إلى الأمور الجوهرية في هذه الكتب، ولا يرى أن من شأنه البحث في التفاصيل. وأهم ما يعجبه هو ما تضمنته هذه الكتب من فكرة الألوهية الصحيحة التي هي القول بخالق قادر **مختلف عن الأشياء، وذلك ما يؤدي إليه النظر العلمي في هذا العالم**[3].

هذا النظر العلمي الصائب والذي غاب للأسف عند بعض العلماء، فأنكروا الخالق والروح والغيب والميتافيزيقا، فقّوضوا بذلك الوجود الإنساني بمعناه الحقيقي الواسع. الوجود الإنساني القائم على الوحدة بين عناصره، وعلى الإيمان بالتوحيد فيما يخص خالقه، وهذا

1- المرجع نفسه، ص 22.

2- محمد عبد الهادي أبوريدة: الإيمان بالله في عصر العلم، عن مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، إصدار وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت، تصدر كل 3 أشهر، 1970، ص 180.

3- المرجع نفسه، ص 180.

أمر محسوم بالنسبة للإسلام خاصة، الذي رمى جانبا "كل المقولات الثنائية، والأقطاب المتعارضة، فالدين والدولة، والروح والجسد، وعالم الغيب وعالم الشهادة، والإنساني والحيواني، والوحي والعقل والدين والعلم والفردانية والجماعية، كل هذه الثنائيات لم يعترف بها الإسلام أو الفكر الصادر والنابع عنه، المسترشد في استشهاداته واستقراءاته بالهدي الإلهي فاستوى على ساحته الدين والسياسة، والروح والجسد، والغيب والشهادة، والإنساني والحيواني، والوحي والعقل، في نسق تأليفي وجامع غاب معه قانون الصراع واختفى عن الحضور وزال فعله وتأثيره[1].

إذن الحل موجود على الأقل على المستوى النظري، وما طبق على المسيحية ليس بالضرورة أن ينطبق على المجتمع الإسلامي، وبالتالي نكون قد أجبنا عن السؤال المطروح سابقا فليس بالضرورة تطبيق نموذج العلمانية الغربية على البلدان الإسلامية، أو إقصاء الإسلام عن مختلف المجالات حتى تلحق المجتمعات الإسلامية بالركب الحضاري لأنه حتى ولو حصرنا العلمانية بمعنى فصل الدين عن السياسة، كما حدث في الغرب بعد سيطرة الكنيسة على مقاليد السلطة الزمنية والروحية، فإننا إذا نظرنا إلى تاريخ الإسلام "وجدناه لا يعرف "الدولة الدينية" ولا "المجتمع المقدّس" لأنه لا يعرف "رجل الدين" ولا "المؤسسات الدينية" فهو ينكر "الوساطة" بين الإنسان وربه، ويرفض "الكهانة والكهنوت" ومن ثم فهو لا يحتاج لمجتمعاته، كي تتطور، ما يقابل هذه المعاني والأفكار والمؤسسات –أي لا يحتاج "العلمانية" ومؤسساتها– لأنه لم يشهد –فكرا شرعيا أو تطبيقيا مشروعا– تلك الثنائية التي شهدتها أوربا الكاثوليكية، حيث نشأت العلمانية!"[2].

1- عرفان عبد الحميد فتاح: إسلامية المعرفة ومنهجية التثاقف الحضاري مع الغرب، ص 22.

2- محمد عمارة: العلمانية ونهضتنا الحديثة، ص 15.

لكن هذا لا يعني إنكار وجود دعاة للعلمانية وللحداثة من أبناء المسلمين والذين دعوا إلى فصل الإسلام عن كل نشاط دنيوي، وجعله قضية شخصية كل فرد حر في كيفية ممارستها في حياته أو تطليقها.

وفي الحقيقة هؤلاء حاولوا إسقاط التاريخ المسيحي الغربي على التاريخ الإسلامي دون تبصر لأنه "إذا كانت الحداثة الغربية قد تقاطعت وتعاضدت مع مسار العلمنة وتقليص الحضور الديني في مختلف أنشطة الإنسان الغربي ومشاغله، فإن ذلك لا يشهد لوجود قانون حتمي لا مهرب منه، بقدر ما يشهد على وجود تجربة لها ملابساتها وآلياتها وظروفها الخاصة، وبذلك ينفتح المجال أمام الحديث عن إمكانية الحديث عن عقلانية غير العقلانية الغربية، وعن حداثة غير علمانية أو مُخاصمة للدين ضرورة، إذا كان هذا الدين على درجة من الانفتاح والمرونة بما يؤهل أصحابه للمشاركة في العالم والتحكم في معطياته انطلاقا من موجّهاته الخلقية والروحية ومبادئه الملهمة"[1].

إذن جعل ما حدث في أوربا قانونا عاما ينطبق على جميع الأديان تعسف وتجاوز لا يرتضيه العلم ولا منهجه أو موضوعيته، فالقانون العلمي يعمم على نفس الظواهر لكن الإسلام في النهاية كدين مختلف عن المسيحية عقديا وفكريا وعمليا، وصراعهما وتحاورهما حجة في ذلك، ومواطن الالتقاء والتشابه لا تعني أبدا المطابقة بينهما "أي إذا كان الدين أداة دافعة للحيوية واليقظة الفكرية والحضور في "هذا العالم"، لا اغتراب في "العالم الآخر" وإذا كان سلطة هداية وتوجيه لا سلطة حجز ومنع مثلما كان الأمر بالنسبة للديانة المسيحية الكنسية، ونحسب أن الإسلام هنا بخصائصه الإنسانية والخلقية وطبيعته الانفتاحية

1- رفيق عبد السلام بوشلاكة: مآزق الحداثة والخطاب الفلسفي، ص 134.

والمرنة يمتلك القدرة الكافية **على بلورة تجربته و"العقلنة" والحداثة** بل وتصويب وجهة الحضارة الإنسانية بمدها بقيم روحية هي في أمس الحاجة إليها"[1].

وهكذا حتى ولو فرضت العلمانية والحداثة على المجتمعات فهذا لا يستلزم وجود نموذج واحد للعلمانية أو الحداثة، فكل مجتمع له خصوصيته وتراثه الذي يستمد منه مقوماته.

وفي الحقيقة ليس المسلمون وحدهم الذين يعانون هذا الإشكال، فبلد كاليابان مثلا قطع أشواطا في الإنتاج العلمي الرائد وتمكّن من امتصاص مقوّمات الحضارة الغربية، لكنّه لم يرد الذوبان في علمانية الغرب، بل بقيت أنماطه الاجتماعية وطقوسه الدينية حاضرة على المستويين الشعبي والرسمي، ولم يجد أي حرج في التكيف بين العقائد البوذية ومبادئ العلمانية والحداثة.

وفي مثال اليابان، رد على بعض المسلمين القائلين بضرورة استيراد النموذج الغربي كما هو، بما فيه من إبعاد للإسلام وإخضاعه لسلطة العقل البشري، وكأن العقل ضرورة يتصادم مع الوحي. فهؤلاء "في سعيهم هذا ما استفتوا القرآن الكريم ولم يدركوا دقائق المنهج القرآني وإنما استسلموا لمنطق الفكر الغربي الذي عاش الصراع بين هذه المتقابلات المتناقضات منذ ولادته في أحضان اليونان في القرن السادس قبل الميلاد"[2].

رغم أن **القرآن غير الإنجيل**، إلاّ أن البعض من المسلمين تشكّلت لديه العلمانية كقناعة وكحل للخروج من الأزمة لكن في نفس الوقت، مسلمون آخرون لا يرتضون هذه العلمانية ويحاولون استعادة نموذج الدولة الإسلامية المتطورة عن طريق النضال السياسي خاصة والذي تمارسه الحركات الإسلامية، هذه التي تجد رفضا ومعارضة من طرف القوى

1- المرجع نفسه، ص 134.

2- عرفان عبد الحميد فتاح: منهج المتكلمين: دراسة وتقويم، ص 108.

الداخلية للعلمانية أو القوى الخارجية للدول الغربية الرافضة طبعا لدولة تقوم على أساس ديني إسلامي لأنه في هذا تهديدا لمصالحها وخطرا يذكرها بالثيوقراطية المسيحية الوسيطية.

هـ- الحركات السياسية الإسلامية وتحدي العلمانية:

إن الاهتمام بالعلمانية ومدى تطبيقها وممارستها مطروح على عدة مستويات وفي عدة مجتمعات بما في ذلك الغربية وفي ذلك يقول أركون: "النقاش حول العلمانية الآن مفتوح دائما في الغرب، والذي يشكل أيضا الثقل التاريخي للإسلام"[(1)] وبسبب هذا الثقل قدم دراسة كرونولوجية للأحداث التي شهدتها البلدان الإسلامية والتي تبرز الجدل القائم بين العلمانية والأصولية، فالبداية كانت بحركات التحرر[*] ثم نشوب بعض الحروب الأهلية لبنان مثلا ثم بعض الاعتداءات كالذي تم على قناة السويس، إلى الثورة الإيرانية مع الخميني، إلى حركة الإخوان المسلمين، إلى المنظمات الإسلامية والسياسية التي نشأت بداية من مؤتمر باندونغ 1955[2].

كل هاته الأحداث تكشف عن الرغبة في تطبيق الإسلام وليس إبعاده، "الإسلام في كل مجتمع يُفسر من خلال التاريخ الحديث، فباكستان ولدت من انفصال مسلمي الهند بعد الاستقلال، أما في الهند فالإسلام هو الركيزة للأقلية والتي تكافح لتحافظ على هويتها، ونفس الشيء في الاتحاد السوفياتي المسلمون يحافظون على الزواج الديني بصرامة لكي يتجنبوا أي اختلاط مع الروسيين، في تركيا الجمعيات احتضنت المخلصين الذين

---

1 -Mohamed Arkoun: Emergences et problèmes dans le monde musulmans contemporain (1960-1985), Islamo-christiana, tome 12, p 138.

* هنري تيسيي يرى: "أن عمليات التحرر مكّنت من إرجاع وزن للثقافات المحلية في الحياة الاجتماعية لبلدان العالم الثالث" انظر مقاله: Pour un renouveau du dialogue Islamo Chrétien, p 98.

2-Mohamed Arkoun: Op.cit, p 138.

رفضوا اللائكية الكمالية، في اندونيسيا وماليزيا الإسلام يعني خاصة هوية ثقافية في مواجهة المذاهب المادية ومواجهة المسيحيين** والغربيين. بإفريقيا الدور السياسي للإسلام قد تحدد بواسطة الجمعيات الدينية، كما في السنغال، في إيران الخميني وضع نهاية للعلمانية التي كان يريدها الشاه، في مصر جمال عبد الناصر حارب الإخوان المسلمين، في الشرق الأوسط حزب البعث بحث عن الطرق التي تردّ الإسلام إلى مجرد عنصر بسيط في الشخصية العربية. في السعودية الاتفاق بين السلطة والدين. يرجع إلى تأسيس الأسرة الملكية. في المغرب تيار العلمانية تعمّق عن طريق الثقافة الفرنسية ومنع حتى يومنا هذا من ممارسات الجهاد الإسلامي والتي تبدو يوما بعد يوم مهددة"[1]. وما حدث في الجزائر أكبر وأوسع حيث أدى التحدي إلى احتضان الكثير من الأحزاب والجمعيات الدينية بشكل رسمي من قبل الدولة بعد أحداث دامية كان للقوى السياسية الإسلامية تحديدا الدور الكبير في إحداثها إلى جانب قوى الدولة.

بعد هذا الاستقراء التاريخي لأحداث العالم الإسلامي في العقود الأخيرة، يتساءل أركون "لماذا أخذ الإسلام مقدمة الأحداث السياسية والاجتماعية خاصة منذ سنة 1970 هل هذا يعني أنه يمتلك قوة مضاعفة خاصة به، أو لأن تعاليمه ملائمة وتمدنا أكثر مما تمد به الأديان الأخرى، أم لإمكانية تلاؤمه مع النماذج العلمانية، أو يجب إرجاع الظاهرة إلى تخلف هذه المجتمعات والتي يجب أن تجيب في وقت قصير عن مختلف التحديات القوية؟"[2].

** يقصد المبشرين الذين يمارسون نشاطا واسعا بهاته البلدان ونجحوا في تنصير الكثير من المسلمين.

1 -Ibid, pp 155-156.

2 -Ibid, p 156.

إنها تساؤلات –تحمل إجابات في نفس الوقت– تكشف عن حقيقة بعض الأحداث لكن لا تكشف عن كل الحقيقة، فربما هذا الارتباط بالإسلام خاصة في جانبه السياسي، أي الرغبة في ممارسة أمور الحكم يرجع إلى شحنة من رد الفعل الناتج عن ضغوط الاستعمار والسيطرة لا أكثر، كتعبير عن الاعتزاز بالذات الإسلامية، وربما الأمر يتجاوز رد الفعل إلى الفعل حقيقة، فعل الإسلام كدين شمولي لا يفصل بين مجالي الدنيا والدين، لهذا رأى أركون أنه للإجابة عن هذه التساؤلات، من الضروري الرجوع إلى الجذور الأولى للإسلام، فالدين يحمل دائما معنى القداسة والقدرة والتعالي، والدعوة إلى طاعة الله والرسول مكررة في القرآن وبالتالي ارتباط المجتمعات الإسلامية بالدين ليس حالة طارئة، بل إن السياسة نفسها تحتاجه[1].

هذا جعل أركون يستنتج قائلا: "داخل الدين لا يوجد فقط التعالي والقداسة بل يوجد أيضا الجانب النفسي، السياسي، الاجتماعي، الثقافي، القضائي، هذا يعني ضرورة إعادة تعريف الدين، خاصة بعد التمييز المبكر الذي فرضه العلم الوضعي والسلطة التعسفية"[2] وهذا ما ينطبق على الدين الإسلامي أكثر من غيره، لأنه لم يقدم نفسه كقيمة روحية فقط، بل جاء جامعا لكل أبعاد الإنسانية، عكس المسيحية التي ركزت على تقوية الجانب الإيماني الروحي ولم تقدم تشريعا مدنيا لحكم الدولة وممارسة السياسة "ومن هنا، فإن "الدولة"، في ظل الديانة المسيحية، لابد وأن تكون "علمانية"، تفصل "الدين" عن مكان الهيمنة على المجتمع ومؤسساته الدنيوية فالعلمانية في الإطار المسيحي، لا تمثل عدوانا على المسيحية ولا على كنيستها، وإنما تمثل "التصحيح" الذي يعيد الكنيسة ولاهوتها إلى إطارهما

1 -Ibid, p 157. انظر

2 -Ibid, p 157.

الطبيعي والصحيح"[1]. والعكس صحيح بالنسبة للمجتمعات الإسلامية فتطبيق العلمانية عليها شذوذ وانحراف عن مسارها الحضاري، والدليل ما أفرزه الواقع الإسلامي من تناقضات وصراعات داخل المجتمع ومع السلطة بسبب رفض أو تطبيق العلمانية.

إن عالمنا الإسلامي تعرض فعلا للغزو الثقافي المغلف بالتكنولوجيا والذي قدم مفاهيم العلمانية والحداثة والتغيير الاجتماعي المفرغ من أي بعد ديني وكما قال أحدهم "ومع تصدير المحركات وتقنيات الكومبيوتر ووسائل الاتصال وغير ذلك، يتم تصدير القيم التي تسود داخل المجتمع الذي صنعها: قيم الفرد والجماعة، قيم المدنية، وتراجع وظيفة الأسرة، قيم العلمانية وتهميش المقدس، قيم السوق وتحجيم الاقتصاديات المحلية، قيم المنافسة بلا حدود وأشكال الانتظام الاجتماعي..."[2] وهذا التصدير حقيقي مايزال مستمرا مؤثرا فينا ،فنحن نتعاطى مع مختلف السلع دون تبصر بخطورة بعضها بل نتباهى باقتناء الأجنبي منها، وهذا السلوك يذكرنا بمقولة ابن خلدون الشهيرة "المغلوب مولع بتقليد الغالب" والمسلم هو المغلوب في الحضارة السائدة اليوم.

لكن هل تقبّل المسلمون هذا التغيير بارتياح؟

إن هذا التغيير والمفروض بحكم التبادلات والتبادلات العالمية للعلاقات الاقتصادية والسياسية لم يجد نفس الصدى، فهناك المقلّدون والمرتدّون والسلفيون والمصلحون والمجدّدون... وبين هؤلاء فئة متمسكة بالإسلام مقتنعة بقدرته، تبحث عن وسائل التجديد والإحياء والتقدم دون التفريط فيه، أي في مقابل أنصار العلمانية وجدت صيحات رافضة

1- محمد عمارة: العلمانية ونهضتنا الحديثة، ص 28.

2- عز الدين عبد المولى: في الرؤية الغربية لتاريخ الحداثة، بمجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي (*U.S.A*)، السنة الأولى، العدد الرابع، أفريل 1996، ص 125.

لها، رافضة للحضارة المادية الملحدة التي تنكر عالم الغيب، وجدت صيحات لليقظة لاستعادة ما فات واللّحاق بالركب الحضاري لكن من عمق الإسلام، من رسالة التوحيد، بل هناك من علماء المسلمين من رأى في الإسلام ليس المنقذ للمسلمين فقط بل لكل البشرية، لأن بإمكانه مجابهة ما عجزت عنه المسيحية وبالتالي بنهضته هو يخدم نفسه وبقية الأديان* .

وطبعا لكي تجسد هذه القناعة، لابد من البحث في الوسائل النظرية والعملية التي تمكّن من حماية الإسلام من العلمانية والحداثة والفلسفات الملحدة عموما، والكفيلة ببعث قيمه الحيّة من جديد.

خاتمة:

من الصعب الخروج بخاتمة لبحثنا لأن الكلام في مثل هذا الموضوع جد متشعب ولم يحسم بين المفكرين ولكن أقول، ليس من الحكمة الإستسلام للمفاهيم البعيدة عن الإسلام قلبا وقالبا وليس من الحكمة أيضا رفضها لأنها قادمة من الغرب. الأجدر فهم مضامين كل المصطلحات والمذاهب الغربية لمعرفة صالحها من طالحها.

كذلك على المسلم ،أن يقوم بأعباء دينه ومجتمعه أن يتمثل المبادئ في سلوكه حتى يكون مؤمنا قولا وعملا، ولا يمكنه فعل إلا إذا تسلح بروح النقد الذاتي ،أي واجه ذاته المسلمة وواقعه دون تجميل أو تزييف للحقائق، أي علينا كمسلمين أن نعي واقعنا ونواجه هذا الواقع بسلبياته حتى نتمكن من تجاوزها.

* ينظر مثلا كتاب: أبو الحسن علي الحسيني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ مكتبة رحاب، الجزائر، ط10، 1987.

يقول الحبابي محللا واقعنا: "وفي الواقع هناك الماركسية هناك إلحاد هناك اللامبالاة، هناك وسطنا: **الأسرة لا تعطي النموذج للمسلم الملتزم**، الكذب، النفاق... حينما يرى الابن أباه يكذب وأمه تكذب وغير ذلك فيقول إذن هؤلاء صلّوا أو لم يُصلّوا، هذا الإسلام لا يفيد."[1].

تحليل للواقع ومواجهة للذات حتى لا نعلق معاناتنا على مشجب الحضارة الغربية أو الاحتلال أو التبشير فقط... فلو قام المسلمون المعاصرون بدورهم في الحضارة الحالية لما تمكن منهم الضعف.

من جهة أخرى ليس من الضروري عندما يتحول الباحث المسلم لدراسة تراث السلف أن يقف على نفس النتائج التي وقف عليها الدارس الغربي المسيحي لتراث سلفه، والتي قادته لإقصاء الكثير من مقومات العقيدة المسيحية، واستهجان الكثير من تصرفات رجال الدين، لأن كما سبق ذكره التاريخ المسيحي ليس هو التاريخ الإسلامي، وهذا الأخير أكيد فيه الكثير من التجاوزات، لكن فيه الكثير من المفاهيم الصحيحة أيضا.

ودون المضي في التشاؤم يجب القول أن هناك إدراك ووعي إسلامي خاصة لدى مفكريه وعلمائه، بالواقع والتطور وبحركة التاريخ وبإرهاصات الماضي وتحديات الحاضر وآفاق المستقبل، وبالتالي هؤلاء العلماء يراهنون على معركة تقدم الإسلام وتفوقه على كل التيارات المعادية له سواء التي في الداخل أو الخارج، ولكي يكون هذا الرّهان فعالا وفي مستوى التحديات من الضروري تحسيس الذهنية والوعي الإسلاميين على مستوى القاعدة العريضة للمؤمنين لتتحمل مسؤوليتها التاريخية والمصيرية. وفعلا فإن المواجهة الإسلامية ضد هذه

1- محمد عزيز الحبابي: تعليق له بالملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي بتيزي وزو منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية 1073، مج 3، ص 1110.

التيارات المعادية وجدت صداها عند الكثير من التيارات، بل واقعنا الحالي يشهد بوجود فئة معتبرة وذات ثقافة غربية، ومع ذلك تعوّل على الحل الإسلامي رغم الحصار والرفض العالميين، إلى جانب الفئة الرافضة لهذا الحل أيضا.

والذي يستخلص أن الحضارة العلمانية بتبعاتها لم تستطع احتواء كل العقليات الإسلامية، بل الكثير منها متمسك بإسلامه وأصالته هذا يجعلنا نقول مع محمد أركون: "إن المواجهات التاريخية في المجتمع الإسلامي الحالي، بين الدين والعلمانية، الدين والشيوعية، الدين والاستعمار، الدين والإمبريالية، تعمل على تقوية الفعل الديني إيديولوجيا، لكنها تميل في نفس الوقت إلى إضعافه ثقافيا ودينيا إذن "الصحوة الدينية" ظهرت نتيجة آمال وتطلعات سياسية، لأن الشعوب بحاجة إلى بعث الآمال عندما تكون مهددة في كرامتها"[1].

وفعلا أركون محق في قوله: "تقوية الفعل الديني إيديولوجيا" ،ويقصد الإيديولوجية السياسية، لأن أغلب المؤيدين للإسلام ودوره التاريخي، اختاروا النشاط السياسي وسيلة لتحقيق ذلك، وسواء صح هذا الاختيار أم لم يصح –رغم أنه رُفض من طرف أجهزة الدول والحكومات الإسلامية القائمة على سياسة علمانية– إلا أنه اختيار موجود ولا يمكن إنكاره، وهذا ليس بالأمر الغريب لأن عملية فصل الدين عن السياسة عملية غريبة عن الإسلام الذي لا يعرف الثنائيات كما مر بنا، إلا أن نموذج الفصل هو الذي يفرض نفسه على أغلب الحكومات للدول الإسلامية، بل وجد قناعة لدى الكثير من المفكرين لحل أزمة تداخل المهام "إما من منطلق الخوف من مخاطر "الدولة الدينية– الثيوقراطية" التي جرّبتها أوربا في عصورها الوسطى فنُكبت بقرون من التخلف والرجعية... وإما من منطلق العشق

1 –Mohamed Arkoun: Emergences et problèmes dans le monde musulmans.. ., p 157.

للنمط الأوربي في النهضة والإحياء، وهو نمط لعبت فيه "العلمانية" دورا تقدميا لا سبيل إلى التشكيك فيه..."[1].

وكحوصلة نقول إنه رغم انتشار موجة الإلحاد والفلسفات المادية والعلمانية، إن الإيمان مازال وأتباعه يكثرون أيضا، وللإنصاف أيضا نقول إن كثير من علماء الغرب تراجعوا عن نظرتهم المضادة للدين رافضين إقصاءه أو إقصاء الميتافيزيقيا، مؤكدين عجزهم عن تقديم كل الحلول للمشاكل التي تعاني منها الإنسانية نذكر كعناوين في ذلك أنشتاين في كتاباه "الدين الكوني" وماكس بلانك في كتابه "**Scientific and autobiografy**" وماكس فيبر وهايزنبرغ...، هذا يؤكد من جهة أخرى مدى صحة النظرة الإسلامية الشمولية التي ترفض الثنائيات، وهذا ما أكده القرآن الكريم الذي دعا للنظر والتدبر رافضا التقليد والعادة الجامدة، ومن ثم يمكن القول أنه توجد "مقاربات جوهرية وأساسية للاتفاق بين التعاليم القرآنية والمعرفة العلمية ومعالم المنهج العلمي... كما أن هناك وجوها للاختلاف لا تمت إلى جوهر المنهج العلمي وخطواته، بقدر ما هي وجوه اختلاف بين الإيمان والإلحاد تلك التي تقع خارج دائرة المعرفة التجريبية، وتتصل بالتفسير المادي العلماني المحض للوجود العام والخاص معا: الكون والإنسان، ومن ثم فليس ذلك علما، بل تأملات خارجة عن نطاق العلم موضوعا ومنهجا"[2].

تأملات عرفتها بعض العقول الإنسانية منذ القديم إلى يومنا هذا، لكنها كانت دائما تشغل حيزا محدودا وتبوء بالفشل في النهاية، لأنها تأملات وإسقاطات لا علاقة لها

1- محمد عمارة: العلمانية ونهضتنا الحديثة، ص 6.

2- عرفان عبد الحميد فتاح: خصائص المنهج العلمي ومقاربته في القرآن الكريم، ص 30.

بالتفسير التجريبي للظواهر المشاهدة في الطبيعة، وإنما هي تعبير عن نزعات مذهبية فلسفية، لكن ليست علمية.

أخيرا بالنسبة للمسلمين إذا أرادوا فعلا تحدي العلمانية والحداثة... عليهم فعلا بتجديد نظرتهم للتراث، تجديدا يتحرى الموضوعية، تجديدا يمنح فهما جديدا ومتطورا لهذا التراث الضخم، وأولى المسؤوليات التي تُلقى على عاتق المسلم بالنسبة لهذا التجديد، الاهتمام بالقرآن الكريم وبفهمه وتفسيره تفسيرا عصريا بعد الاستفادة من التفاسير القديمة التي قامت بدورها في وقتها وحسب إمكاناتها، وضرورة البدء بالقرآن الكريم لأنه المصدر الأول لكل التراث الإسلامي بعلومه الدينية والدنيوية لأنه الأقدر على التحدي وهذه هي مهمة المجتمع الإسلامي الذي يعتقد بكلام الله وقدسيته وقدرته المطلقة على التجدد والمسايرة.

